التجمّعات الرديفة

لقد ألقينا نظرة على التفاعلات التي تجري داخل أوروبا الغربية وشرق آسيا وأمريكا الشمالية لبناء القوة، واثبات الوجود في هذا العالم السريع التطور، تحت مظلة الوفاق، ويمكن القول: إن هذه التفاعلات الدولية مقدر لها أن تجذب في مجالها «المغناطيسي» مجموعات أخرى من الدول المجاورة من تلك التي تتقارب معها في المصير، وتتشابه في التحديات والطموحات، وأي متابع للتاريخ القريب يعرف أن علاقات أوروبا الغربية والشرقية بحليفتيها الكبيرتين، لم تكن كما يعرضها الاعلام مبنية على الثقة المتبادلة والتعاون الدائم، ونحن نعرف أن شارل ديغول كافح جهده للتفلت من النفوذ الأمريكي، وأن العلاقة البريطانية «الحميمة» مع الولايات المتحدة يخالطها شعور «الوارث والمورث» في المصالح والنفوذ، قبل أن تتراجع الامبراطورية التي لا تغيب عن مستعمراتها الشمس، لتستكين في تلك الجزر الضبابية التي لا تكاد تشرق عليها الشمس!

أما ألمانيا التي احتضنت النازية أيام هتلر، وايطاليا التي رحبت بزعامة «الدوتشي» فقد خضعتا لمخططات وقرارات خاصة، ولقيتا من الحليفة الكبرى معاملات «متميزة»! . ودول

أوروبا الشرقية، لا تختلف كثيرا عن جاراتها الغربية في النتائج التي تثمر النفور والكراهية، ولكنها قد تختلف عنها في الوسائل التي وصلت بها مع الرفقاء في موسكو الى تلك النتائج!

* * *

لقد اتفق الحلفاء ـ ستالين وتشرشل وروزفلت ـ على تقسيم غنائم الحرب، في مؤتمر يالطا على ساحل البحر الأسود بداية عام ١٩٤٥، وتعهد ستالين في ذلك المؤتمر باعلان الحرب على اليابان ـ التي لم تكن قد استسلمت ـ في مقابل الحصول على جزر «كوريل» والجزء الجنوبي من جزيرة «سخالين». (وهذه هي موضوع الحوار الدائر بين روسيا واليابان الآن). وأعادوا تثبيت الحدود بينهم في لقاء بوتسدام على مقربة من برلين في ١٧ تموز من العام نفسه، وبذلك غدت أوروبا الشرقية من حصة الاتحاد السوفياتي، مثلما كانت أوروبا الغربية من حصة الغرب.

واذا كانت الولايات المتحدة الامريكية قد مارست دبلوماسية الدولار في السيطرة على حلفائها في الغرب، فان السوفيات لم يتسامحوا مع المنشقين ـ من رفاقهم ـ عن الخط الماركسي اللينيني فأحرى بهم أن لا يتسامحوا مع حلفائهم من دول أوروبا الشرقية عند خروجهم على الخط، ولقد كان أسلوب قمع الانتفاضة الهنغارية والتشيكية، درسا لكل اولئك الذين يمكن أن يغريهم ترف «الحرية» لينتهوا الى الفوضى، وشهوة العودة للممارسات البرجوازية الى التنكر للأخوة الشيوعية!!

كنت في تشيكوسلوفاكيا صيف ١٩٧٦، وسألت مرافقي عن

قائـد ذلك التمرد المشهور في براغ، فرمقني بنظرة كانت كافية لاقنـاعي بعـدم إعادة السؤال. . ! ولكن القبضة الحديدية التي أمسكت بزمام الأمور في الكتلة الشرقية، قد تراخت مع الزمن، وأمكن للمارشال تيتو أن ينعزل عن سلطان موسكو من البداية، وأن يمارس شاوشيسكو بعض الاستقلال في تحركاته السياسية، وأن تنفرد البانيا بالولاء لـ «ماو» بعد قطيعة مع السوفيات مباشرة، وأخيرا استـطاع عمـال بولنـدا أن يعبـروا عن سخـطهم على الحكـومـات التي تدعي أنهـا وجدت من أجلهم، وأن يحتفل الشعب البولندي احتفالا فريدا باحتلال واحد من رعاة كنيستهم عرش البابوية في الفاتيكان، وكذلك فقد وصل «دوبشيك» الى ايطاليا لاستـلام دكتـوراه فخـرية بعـد الحجـر الـطويل، وبلغ الانفراج في هذه الأيام بعدد من الدول حد التقارب، أو التماثل في بعض الأنـظمـة مع جاراتهـا في الغرب، دون أن يبدو في الكـرملين أي اعتـراض على تصرفاتها، بل إن بعض الأحزاب الشيوعية في الـدول الشـرقية بدت وكـأنهـا قد تخلفت بالنسبة للانفتاح الذي بدأه غورباشوف في الاتحاد السوفياتي ! !

قلنا إن المزاج النفسي للشعوب الأوروبية يمثل أهم الحوافز وراء الحمـاس لخلق أوروبـا قوية وموحدة. . ومن الواضح أن العوامل وراء ذلك، هي نفسها ـ بل قد تكون أقوى وأشد ـ في أوروبا الشرقية، وهذا ـ في تقديرنا ـ ما سيدفع هذه الدول الى التحول نحو جاراتها، لخلق تكتل أكبر وأوسع، قد لا تكون روسيا بعيدة عنه. . إذا ما أرادت أن تتفادى أي صراع داخل القارة، أو رغبت في أن تمهد لنفسها قيادة هذا التجمع الكبير إلى جانب

تشرشل

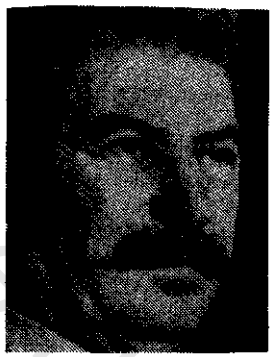

ستالين

ونحن نلقي بهـذا الاحتمـال في معـرض البحث، لأن الصراعات ـ أو ما دعي بالحرب التجارية ـ قد بدأت تطل برأسها مبكـرة، بين أمـريكـا وحليفـاتها، فلأول مرة تعمد أمريكا إلى الحماية الجمركية، والى مضاعفة التعرفة على صادرات السوق الأوروبـية، ردا على رفض دول الـسـوق استـيراد الـلحـوم «المهرمنة»، حماية للمستهلك الأوروبي من آثار الهرمون الذي يقـال إنـه يسبب السرطان. وهذا الذي يجري بين الحلفاء في الغرب، لا يستطيع الاتحاد السوفياتي أن يتحمله، أو أن يطيل المناورة فيه مع حلفائه، وبذلك فان الاضمن له أن يجد الوسيلة الأضمن والأنسب للتجمـع مع أوروبـا ككل، لضمان مصالح شعوبه في تبادل ثمار الانتاج مع شركاء قادرين وأقوياء. ولا شك في أن الاتحاد السوفياتي يتمتع بموقع فريد يزداد أهمية مع تطور الأحداث، ذلك لأنه يسيطر على بقعة هائلة من الأرض تمتد من

الجزء الشرقي لأوروبا الى مياه المحيط الهادي في شرق آسيا، ليجاور كوريا والصين والجزر اليابانية، هذا الموقع الفريد يؤهل الاتحاد السوفياتي ليكون الجسر، أو مركز الالتحام بين الكتلة الآسيوية في الشرق الاقصى، والكتلة الأوروبية في الغرب مما قد يتيح فرصا غير مسبوقة في التاريخ البشري إذا ما استغلت لخدمة الانسان في هذه الأقطار وفي بقية أقطار العالم.

وهنا يقفز السؤال القديم هل تعود أمريكا الى قارتيها الشمالية والجنوبية وتبني تكتلا وراء المحيط؟ ونقول: قد يكون هذا الاحتمال، إذا قدر لأمريكا أن تفكر في بناء يحكمه العدل والانصاف، وتتساوى فيه الفرص والمصالح والأقدار بين شعوب تلك البلدان..!

نحن نهوّم بمثل هذا الكلام بين يدي المستقبل، مع أننا نستبعد التجاهل لنصوص عهد الوفاق بين القطبين وبالذات السرية منها، التي لا بد وأن تكون قد حددت مجالات الحركة والنفوذ لكل منهما على ظهر هذا الكوكب، ولكنا نحسب أن التحولات التي يحفزها أو يثيرها الوفاق، لا تقف بالضرورة عند قوالب وتعهدات وحدود معينة خاصة اذا بقي استبعاد السلاح الذري ماضيا. ولو افترضنا أن أحد القطبين الشريكين قد أحس بالغبن في أي تطور للأحداث، فانه على الأرجح سيعود إلى صاحبه لتنفيذ ما اتفقوا عليه سابقا، فاذا التزموا بالتعاون بينهما على الأساس القديم رغم تبدل الأحوال، فان أي مراقب سيرى أن مثل هذه الأحداث ستقود القطبين الكبيرين الى المراجعة

والتعاون وربما إلى البحث في تكوين تكتل منهما، في مرحلة قد تكون أعقد وأصعب، في عالم سريع التغيير، وعمليات التطور فيه لا تكاد تتوقف عند حدود الزمان والمكان.

نكتفي بهذا الحديث عن ظهور الكتل القوية والغنية لنلقي بالنظر على كتل أخرى تتحرك في المنطقة الرمادية مثل الكومنولث وعدم الانحياز، ودول جنوب شرق آسيا، وأمريكا اللاتينية، ومنظمة الوحدة الافريقية والجامعة العربية.

وإذا كنا سنرجىء الحديث عن منظمتنا العربية الى فصل قادم، فإن الكلام عن الكتل الأخرى لا يخرج بها عن إطار واحد، تتشابه فيه من حيث الاداء والفاعلية والقدرة على التطور ومواكبة الأحداث مع اختلاف بينها في حجم الأداء وقوته.

«فالكومنولث» هو مجموعة من مخلفات الاستعمار البريطاني، قبلت بأن يظل التاج البريطاني رمزها ورئيسا لها في نفس الوقت، والمرء حين يتابع حركة هذه المجموعة الكبيرة من الدول وهي تقف تحت مظلة مستعمرها السابق، يدرك مدى قوة هذه الرابطة، ورمزية السلطان البريطاني على معظم أعضائها، كالهند، وباكستان وسيلان وغانا واوغندا وكينيا وماليزيا... وكندا واستراليا ونيوزيلندا.. الخ، نقول يدرك مدى قوة هذه الكتلة والترابط بين أعضائها وفاعلية هذا التجمع في الساحة الدولية. ومعظم الدول الأعضاء في الكتل التي ذكرت آنفا، هي التي تتألف منها كتلة عدم الانحياز، التي كانت بدايتها في «باندونغ» بأندونيسيا عام ١٩٥٥، تحف بها آمال عراض حملها نهرو وعبد

الناصر وشو ان لاي، وسوكارنو، الذين خرجوا من ذلك المؤتمر بقرارات هامة عن التعاون الاقتصادي والتجاري بين الأعضاء والمناداة بالسلام ونزع السلاح، وتأييد الحرية والاستقلال لكل الشعوب، وحق اللاجئين العرب في العودة الى ديارهم، الى جانب التأكيد على ضرورة التعاون الدولي في نطاق الأمم المتحدة، وقد طويت تلك القرارات مع تطاول الزمن، وتجاوزتها الأحداث، وأفرغ ذلك التجمع العالمي من مضمونه الخطير، وتفرق الأعضاء وراء مصالحهم الآنية، ووراء القروض من الأغنياء، والتهافت على الدعم والمساندة من الأقوياء.

إن تجمع دول جنوب شرق آسيا، ورابطة الدول الأمريكية، ومنظمة الوحدة الافريقية والجامعة العربية تتشابه الى حد بعيد في خصوصية تكوينها الاقليمي، ومشاكله الداخلية، وأسلوبها في معالجة تلك المشاكل، باختلاف بسيط في هذه المعالجة، وهي بهذا الحجم الهائل من المساحة والخامات والشعوب، تنقصها القدرة حتى الآن على الخروج من خلافاتها، وتصفية نزاعاتها، فضلا عن حل مشاكلها الداخلية، والقفز بشعوبها من دائرة الفقر والمرض والمجاعات، وكتل بهذا الوضع المأساوي لا يتوقع أن يكون لها دور يذكر في زحام الكتل الغنية والقوية، القائمة منها، أو تلك التي تحت التكوين، كما يتوقع أن لا يزيد نصيبها من مائدة المستقبل القريب ـ على الأقل ـ عن الفتات. وحسبك من دول تتجمع في كتل وهي بآخر معطيات العلم والتكنولوجيا، وكم هائل من الانتاج وفائض كبير في ميزان المدفوعات، إلى جانب هذه الدول الفقيرة التي تتخبط في شراك القروض الأجنبية بمئات

البلايين.. كيف تكون فاعلية هذه الدول، وكيف يكون أداؤها في عالم ستتركز المنافسة فيه على زخم الانتاج، وامتلاك ناصية العلم والتكنولوجيا، وحجم التقدم والرفاهية للشعوب؟!

قد يكون هذا الكلام ثمرة جرعة أكبر من التشاؤم، ولكنا ـ مع ذلك ـ ما زلنا نتسلح ببقية من تفاؤل، نعتقد معه، أنه اذا قُدر لهذه الدول «النامية» أن تراجع نفسها بجدية لمواجهة الخيار: أن تكون أو لا تكون، وأن تعيد تنظيم نفسها مستغلة جو الوفاق، وأن تعمل بصدق وتجرد وإخلاص وكفاية لاستغلال خيراتها، وخدمة شعوبها، عندها، سيكون للموازين العالمية قراءات أخرى مختلفة تماما..!!